

خالد بن الوليد

نسبه ونشأته

بِغَلْمٍ عَلَى عَلَى عَنِيَّةٍ

المدرس بمحمد علي الأميرية للبنين

خالد بن الوليد بطل من أبطال الاسلام ، وقائد عظيم من قواد الحرب المحنكين وسيف من سيوف الله . أبوه الوليد بن المغيرة . سيد قريش وعظيمها في الجاهلية ، والملقب بينهم بالعدل ؛ لأن قريشا جميعها كانت تكسو الكعبة سنة ويكسوها وحده من ماله سنة . ولعظيم مكانته في قومه ، وشدة معارضته للنبي صلى الله عليه وسلم ، في بدء الدعوة أنزل الله فيه كثيرا من آيات القرآن الكريم : فقد كان الوليد كثير الكيد للنبي ، شديد العناد ألد الخصام ؛ فقال تعالى متوعدا أشد وعيد ، مهددا أعظم تهديد : « ذرني ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبني شهودا ، ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا » . وقال الوليد مستكبرا متعاليا : « أنزل القرآن علي محمد ، وأترك وأنا كبير قريش ، ويترك أبو مسعود الثقفي سيد ثقيف ؛ فأنزل الله قوله تعالى : « وقالوا لا نزل هذا القرآن علي رجل من القريتين عظيم ، أ هم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، من ذلك تعلمون أن خالدا درج في بيت عز ومجد ، وشرف وسيادة ، ونشأ كما ينشأ العرب إذ ذاك محبا للحرب ، عليا بفنونها مشغوبا بالقروسية يركب الخيل ، ويجيد ضرب السيوف ، وطعن الرماح ، ورمي السهام ، فلم يكذب ينزع رداء الطفولة حتى كان سيدا في قومه ، شجاعا مقداما ، نافذ العقل ، سديد الرأي ، جرى القلب ، ذكي الفؤاد ، فالفقوا إليه بأعنة الخيل ، وكان في الحرب قائد الفرسان .

وقد ظهرت صفاته العظيمة ، وبقظته وذكاؤه ، ومكره ودهاؤه في غزوة حد : فلم يكذب رماة المسلمين يتركون مواقفهم التي أمروا بها ، حتى كر خالد

بجمله على المسلمين من خلفهم ، فبدل نصرهم هزيمة منكرة ، ورزما عظيما ، ولولا أن الله سبحانه مريد بنييه ، وحافظ دينه ، لكانت هذه المكيدة القاضية على الاسلام والمسلمين . ولهذا الصفات سر النبي باسلامه سرورا عظيما ، واستقبله بوجهه طلق ، وثغرياسم ، وقال له : الحمد لله الذي هداك ، قد كنت أرى لك عقلا ورجوت ألا يسلك إلا الخير .

مظاهر عظمته وأسرار انتصاره

وكأنني بكم تسألون ما سر عظمته ، وما الأسباب التي هيات ذلك النصر المطرد ، والفوز المين ؟

للعظمة أسرار وأسباب ، بعضها ظاهر جلي . وبعضها مستتر خفي أما الأسباب المستترة فغاية ما يقول الناس عنها : إن فلانا موهوب . وأن له روحا قوية ، وقوة خفية . تجعله مهيب الطلعة ، جليل القدر ، قوى التأثير في نفوس الجماهير . وأما الأسباب الظاهرة فتجلى في خلق متين ، أو رأى حكيم ، أو شجاعة وإقدام . أو فصاحة وبيان ، وقد كان خالد بن الوليد عظيما موفورا الحظ من أسباب العظمة وأسرارها . وكان قائدا لم يظفر العالم بكثير من أمثاله ، وستلصق أسباب عظمته ، وأسرار فوزه وانتصاره من الأمور الآتية :

أولا : كان خالد مخوفا مرهوبا ، يسبقه إلى أعدائه جيش من الرعب . فإذا قلبهم في جناح طائر من شدة الخفقان ، علم بمقدمه هرقل ملك الروم فقال : ويل للروم من المولود المشثوم ، وقال أحد قواد الملك : أنا أعلم الناس بحاله ، لا أحد أئمن طائرا منه ، ولا أحد في حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم قولا أو كثروا إلا انهزموا عنه .

ثانيا : كان حاد الذكاء ، واسع الحيلة ، عظيم الدهاء ، له فطنة في الحرب ، ليست لأحد من العرب ، يتصور الشئ كأنه يراه ، فهو يتخيل المعركة قبل حدوثها ، ويفكر ويقدر ، ثم يدبر الخطة الحكيمة ، ويرسم السبيل القويم ، فإذا استمر القتال ، وجد ما لم يكن في الحسبان لم يغب عنه الفكر الصائب ، والرأى السديد ، وسترون في حرب سليمة كيف كان رأيه في أثناء المعركة أحد من الأئمة وأمضى من السيوف .

ثالثا : كان يجمع إلى سداد الرأي ، الشجاعة والاقدام ، يدبر الأمر ويحكم الخطة ، فإذا وقعت الواقعة ، وحى الوطيس ، ضرب لجنوده المثل الأعلى في التضحية والاقدام ، واحتقار الموت ، فكان يقدم الجيش كالليث الكاسر ، شامرا سيفا في حده المنايا ، وفي ضربته المتون ؛ فإذا أبطأ عنه النصر نادى قائد جيش العدو ، ودعاه للبارزة ، فلا يكاد يخرج اليه حتى يرديه قتيلًا .

رابعا : لم يغفل خالد عما يحسب له قواد الحرب الآن ألف حساب ، وهو حالة الجنود النفسية ، أو روحهم المعنوية كما يقولون : فقد كان دائما يذكى في جنده الحماسة ويقوى روحهم ، ويملا نفوسهم ثقة وأملا : سمع رجلا من المسلمين في وقعة اليرموك يقول : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ؛ فقال خالد : ما أقل الروم وأكثر المسلمين ، إنما أكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالخذلان ، لا بعدد الرجال وهو يعمل دائما على إضعاف هذه الروح في جيش عدوه ويخيفهم ويملا قلوبهم رعبا وفزعاً ويأسا وقنوطا : قال مرة لقائد من قواد الروم : نحن معشر العرب نشرب الدماء وقد قيل لنا لادم أحلى من دم الروم ؛ فأقبلنا نريق دماءكم ونشربها . وقال لقوم تحصنوا منه في حصن منيع : لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم ، أو لأنزلكم إلينا .

أمثلة مومضة من مروبه

وإني أذكر أمثلة مومضة من حروبه ، لتكون مرآة لكم ، ترون فيها شديد بأسه ، وحكيم رأيه ، وقد يغنى القليل عن الكثير :

١ - حربه مع مسيلة : أبدأ لكم بكلمة عن مسيلة فإن قصته فيها الطريف

المضحك ، وإن كانت كلها شرا وكفرا . كان مسيلة بن نمامة رئيس قومه ، وقد وفد على النبي فأسلم ، ولما عاد إلى اليمامة ارتد ، وادعى النبوة ، وقال : إن الله قد أشركني في الأمر مع محمد ، وأرسل إلي النبي هذا الكتاب : من مسيلة رسول الله إلى محمد رسول الله ، أما بعد فإني قد أشركت في الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصفها ، ولكن قریشا يعتدون ، فكتب النبي إليه :

« من محمد رسول الله إلى مسيلة الكذاب ، السلام على من اتبع الهدى ، أما :

بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وقد أهلكك
قوتك ، أبادك الله ومن صوت معك ،

وفي خلافة سيدنا أبي بكر توجه خالد لقتاله في بضعة آلاف من المهاجرين
والأنصار ، وأهل القبائل ، فلما بلغ مسيلة دنو خالد خرج إليه في أربعين ألفاً
من قومه ، فقاتل الفريقان قتالاً عنيفاً ، وكانت الحرب يومئذ تارة للمسليين ،
وتارة للمرتدين ، ولما رأى خالد رضى الله عنه ما الناس فيه قال : امتازوا أيها
الناس ، لنعلم بلاء كل حى ، ولنعلم من أين يأتينا الضعف . فلما امتازوا قال بعضهم
لبعض : اليوم يستحي من الفرار . فقاتلوا قتالاً شديداً ، وثبت مسيلة وقومه ،
فعرف خالد أن الحرب لا تنتهى إلا بقتل مسيلة ، فتقدم المسليين ، ودعا إلى
المبارزة ، فلم يبرز إليه أحد إلا قتله ، ثم دعا مسيلة ، فخرج إليه فحمل عليه خالد
وأرهمقه ، ففر مهزوماً ، وتبعه خالد والمسلمون من خلفه يقتلون ويأسرون ،
فقتلوا عشرين ألفاً فيهم مسيلة ، وتم النصر للمسليين .

٢ — فتحه العراق : ولما فرغ خالد من أمر مسيلة أمره أبو بكر بالسير إلى
العراق فضى إليه . وهزم الفرس وشتت شملهم ، وظل ينتقل من فتح إلى فتح ،
ويحرز نصراً فى أثر نصر حتى فتح مدائن العراق ، ولما بلغ أبا بكر أبناء هذا
النصر العظيم قال : يامعشر قريش ، عدا أسدكم على أسد الفرس فقتله ، أعجزت
النساء أن ينشئن مثل خالد ؟

٣ — وقعة اليرموك بالشام : ولما رسخت أقدام العرب فى العراق أرسل
سيدنا أبو بكر يأمره أن يسرع إلى الشام لنجدة الجيش العربى الذى يقاتل
الروم ، وهنا تظهر عبقرية خالد ، وسداد رأيه ، ومضاء عزيمته : فإن عليه أن
يصل إلى ساحة القتال بالشام فى وقت قصير ؛ وأمامه طرق بعضها طويل يضع
الوقت ؛ ويفوت الفرص ، وبعضها إن قصر ، فانه يعجز بالمسالح القوية ، والحصون
المنيعه ، فماذا فعل هذا القائد المغامر ؟ رأى أن يحتاز بجيشه صحراء قاحلة جرداء
يضل فيها النجم ؛ ولا يبلغ مداها الوهم : حرها جحيم ، وريحها سموم ؛ ماؤها
سراب ؛ وسحابها رباب ، والسير فيها عذاب أى عذاب ؛ ولكن خالد له عزم

يقل الحديد فأتى بجمال وأظلمها أيا ما، ثم سقاها حتى رويت؛ وربط أفواهها حتى لا تجتر؛ فينفذ مافي جوفها من الماء ثم اقتحم بجيشه هذه المفازة المهلكة؛ وفي كل مرحلة يذبح بعض الجمال الراوية؛ ويستخرج مافي جوفها من الماء؛ فيسقى منه الخيل والدواب؛ وبهذه الحيلة العجيبة قطع هذه البادية في عشرين يوما؛ وأدرك المسلمين في الشام قبل أن يتخطفهم الروم من كل مكان؛ ونزل عليهم كما ينزل الغيث الهاطل على القفر الجديب؛ فكان عمله هذا إحدى المعجزات التي وضعته في صف هنيال، والاسكندر، ونابليون، ولم يكده يصل إلى المسلمين حتى اشتبكوا مع الروم في معركة فاصلة تسمى «وقعة البرموك»، كان جيش المسلمين فيها أربعين ألفا وجيش الروم مائتين وأربعين ألفا؛ وتقدم الروم لهم صوت كصوت الرعد، فتقابل الجيشان واقتلا أشد قتال وأبرحه؛ وحمل خالد على قلب الروم، ففصل بين خياهم ورجلهم، ولما رأى فرسان الروم يتوجهون للهرب أفرج لهم ولم يحرجهم، فخرجت الخيل تعدو بهم في الصحراء، وأقبل المسلمون على الرجل يعلون السيف، ويقتلون الصف؛ فكأنما يهدمون حائطا؛ فشاعت الفوضى في الجيش الروماني؛ وأطار الفزع أقدتهم؛ فولوا مهزومين تحت جناح الظلام بعد أن قتل منهم مائة وخمسون ألفا ولم يقتل من المسلمين إلا ثلاثة آلاف شهيد.

وفاء

قضى خالد معظم حياته فاتحا مجاهدا، شهد مئات المعارك، وحارب المرتدين والمنتئين، وفتح العراق والشام، وهزم الفرس والروم، وتقدم الصفوف، وجال وصال، وأكثر من النزال، فلم يظفر به سيف، ولم يشرف بمقتله سنان، وما هو ذا تحضره الوفاة؛ فيبكي ويقول: لقيت كذا وكذا زحفا؛ وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف، أو رمية بسهم؛ أو طعنة برمح، ولقد طلبت القتل في مظانه فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي حنفاً كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء... فعليه رحمة الله.

على على عنبية